

الباب الثاني
المعنى الدلالي للجاهلية

obbeikandi.com

مدخل

اختلف كثير من الدارسين حول مدلول لفظة «الجاهلية» ونقيضتها «الحلم» التي كثيراً ما تقترن بها، وقد اضطربت أقوالهم في ذلك وطالت مناقشاتهم، ولم يخلصوا إلى معنى دقيق محدد، ينصب على الإشارات اللغوية، وما تتضمنه من مفاهيم بيانية. وقد اشتدت الحماسة ببعضهم، فذهب يربط بين الحضارة والثقافة والجاهلية.

ومن هنا تعمقت الهوة بين التفسيرات، وتباينت الاتجاهات، وتدخلت الأهواء الشخصية في توجيهها، حتى أصبحنا نقرأ مقولات تتناقضها المؤلفات، وكأنها مسلمت توصلت إلى حقائق قاطعة. ولا شك أن مجهودات أولئك الدارسين، على الرغم من تباين مشاربهم، أو اتفاقهم في كثير أو قليل، هي مما يؤدي إلى تكامل الصورة في المستقبل^(١).

(١) انظر على سبيل المثال:

- عبد الغفار، الجاهلية قديماً وحديثاً ص ٥ - ٧، ٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٢١ - ٢٢٢، ٢٥٢ - ٢٥٣، ٢٧٩، ٢٨٢.
- الحوفي، الحياة العربية، ص ٣٤٥ - ٣٥٠.
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، ص ٣٧ - ٤٣.
- البياتي، تحديد مصطلح الجاهلية والامية، مجلة كلية الآداب، بغداد ع ٢٧ نيسان ١٩٧٩، ص ٦٨ - ٩٠.
- الجندي، تاريخ الأدب العربي ص ٧ - ١٢.
- ضيف، العصر الجاهلي ص ٢٩ - ٤٢.
- وجدي، نقد كتاب الشعر الجاهلي ص ٣٢ - ٤٣.
- قطب، جاهلية القرن العشرين ص ٨ - ١٤.
- شمس الدين، بين الجاهلية والإسلام، ص ٢٣٥ - ٢٥٦.
- القيسي وآخرون، تاريخ الأدب الجاهلي قبل الإسلام ص ٤ - ١٣.
- الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص ٢٥ - ٣٠.

على الرغم من أن هذا البحث استفاد كثيراً من المعالجات الفكرية التي أدلى بها الدارسون، فإنه يحاول أن ينحو هنا نحو اللغة واشتقاقاتها وظلالها، لكي يخرج بتفسير مقنع للألفاظ من وقعها نفسه، ابتداء من أبسط معانيها، وانتهاء بشمولها المطلق.

لقد كان من الضروري العودة إلى البنية الأساسية التي جاءت فيها هذه المفردة، أي العودة إلى استعمالها عند العرب. فلم يكن هناك بد من الابتداء بالقرآن الكريم، وبالحدِيث الشريف، لأنهما المصدران الرئيسان اللذان يعطيان الصورة الصادقة لذلك الاستعمال، وقد تبين لنا أن أهم معاني الجاهلية ومشتقاتها تنحصر في التالي:

ضد العلم، أو تصور الشيء على خلاف حقيقته، ويأتي بمعنى ضد الخُبر وعدم المعرفة المسبقة بالشيء. كما تتضمن المعنى الديني الجديد.

وإضافة إلى ذلك، فإن لفظة «الجاهلية» نفسها، لم تستخدم إلا بعد مجيء الإسلام، ومن ثم أصبحت مقابل «الإسلام»، فالإسلام يعني: الحلم والعلم والأخلاق الحميدة، أما الجاهلية فتعني: التسرع والانفعال والغضب والفتنة، والجهل، والوثنية.

وتأتي مفردات اللغة المختلفة لتؤيد كل هذه الدلالات. فالجذر (جهل): يشير إلى أنه: سلوك ثورة وغضب، وعاطفة عمياء هوجاء من غير تفكير في العواقب الوخيمة المترتبة عليه.

أما نقيض (الجهل)، فهو (الحلم) ويعني: القاني والتريث في ردة الفعل، والسيطرة على الذات، والقدرة على كبح جماحها.

وقد دارت حول هذه الدلالات كل استعمالات تلكما اللفظتين. وعلى الرغم مما أشيع عن معنى الجاهلية، بأنها تعني عدم معرفة الكتابة، فإن لفظ «الجهل» لا يخرج عن معنى المعرفة اليقينية الإدراكية.

وعلى هذا، فإن الجاهلية، بمعنى الجهل بالدين، ليست معروفة أيضاً، وإنما ينحصر معنى مشتقاتها في مدلول واحد هو: الطيش والنزق. وتلقائياً اتخذت اللفظة المعاني التي تجعل الجاهلية بإزاء الإسلام، وقد تم هذا التحول في المعنى بتأثير من الإسلام نفسه.

الفصل الأول

المعنى الدلالي في القرآن الكريم والحديث الشريف

أ - في القرآن الكريم

هناك فرق شاسع بين استعمال القرآن الكريم لمادة «جهل»، والاستعمال السابق عليه؛ وقد ذهب بعض المفسرين إلى التوفيق بين المعنى الذي شاع قبل الإسلام، والمعنى الإسلامي، وذلك في إطار تلك المعاني السابقة، نجد هذا التوفيق عند تناولهم للآيات التي اشتملت على مشتقات تلك المادة، وذلك على النحو التالي:

جهل

ومن الملاحظ أنه جاء في صيغة الفعل المضارع:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوَقُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الأنعام: ١١١).

فالجهل هنا: ضد العلم، أي يجهلون: أنه الحق^(١) وقيل يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة^(٢).

ضد الحلم، وذلك أنهم ما سألوا الآيات إلا لتوجيه بقائهم على

(١) عبد الله بن عباس، توير المقاس، ص ٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٦٧.

دينهم، فإنهم كانوا مصممين على نبد دعوة الإيمان، وإنما يتعللون بعلل طلب الآيات استهزاء.

ثم إن الاستدراك يرجع إلى ما تضمنه الشرط وجوابه: من انتفاء إيمانهم مع إظهار الآيات لهم، أي لا يؤمنون، ويزيدهم ذلك جهلاً على جهلهم، فهم مستهزئون، وإسناد الجهل إلى أكثرهم لإخراج قليل منهم، وهم أهل الرأي والحلم، فإنهم يرجى إيمانهم لو ظهرت لهم الآيات^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ (الأعراف: ١٣٨).

والجهل هنا هو:

ضد العلم، أو تصور الشيء على خلاف حقيقته: أي جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام، وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكداً لما دلت عليه الجملة الاسمية: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم، وراسخة من نفوسهم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا آتَانَاكُم بِهِ مَاءً إِلَّا نَجْرٌ آلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ (هود: ٢٩).

وهذا خطاب نوح عليه السلام إلى قومه. والجهل هنا بمعنى:

١ - ضد العلم، أي تجهلون أن هذا الأمر من الله تعالى.

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير، ج٨، ص٧.

وانظر الجوزي، زاد المسير ج٣، ص١٠٦.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٨، ص٨٢.

٢ - ضد الحلم، أي تجهلون لأمركم إياي بطرد المؤمنين^(١).

وفي الآيتين نرى أن استعمال الفعل المضارع هنا دليل على أن الجهل هو ديدنهم، وأنهم يتعمدون الاستمرار فيه^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ...﴾ (البقرة: ٢٧٣).

فالمعنى هو: يحسبهم الجاهل بأمرهم، فالجهل نقيض العلم، أي أراد الجهل الذي هو ضد الخبر، ولم يُرد الجهل الذي هو ضد العقل^(٣).

جهولاً

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

فالجهل هنا: ضد العلم: أي إنه ظلم للامانة جهول بحقها^(٤).

جاهلين

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بقرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هَرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧).

(١) الجوزي، زاد المسير، ج٤، ص٩٨.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج١١، ص٥٦.

(٣) الطبري، تفسير الطبري، ج٥، ص٥٩٤. وانظر القرطبي، الجامع، ص٦٠٠، ج٦.

ص٤٤٦، الجوزي، زاد المسير، ج١، ص٣٢٨.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، ج٢٢، ص٥٧ - ٥٨، وانظر الجوزي، زاد

المسير، ج٦، ص٤٢٩.

والجهل هنا: ضد الحلم: حيث انتفى من الهزء، لأن الهازيء جاهل لاعب، ولذلك تبرأ وتتره عن الهزء لأنه لا يليق بالعقلاء^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اِسْتَطَقْتَ أَنْ تَبْنَغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٥).

فالجهل يعني:

١ - ضد الحلم: أي لا تكونن ممن لا صبر له، لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين^(٢). وهذا أنسب للمعنى^(٣).

٢ - ويجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضد العلم^(٤).

وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

فالجهل هنا:

ضد الحلم: الحوض على التخلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتتره عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء^(٥)، فالجاهلون ههنا هم السفهاء، لأن التعريف فيه لاستغراق هذه الطائفة من الجهال، وأعظم الجهل هو الإشراك، وما اتخاذ الحجر إلهاً، إلا سفاهة لا تعدلها سفاهة^(٦)، إذ إن الإشارة في الأصل بالجاهلين هنا إلى المشركين، ثم

(١) الجوزي، زاد المسير، ج١، ص ٩٧، وانظر ابن عاشور، تفسير التحرير، ج١، ص ٥٤٨.

(٢) الجوزي، زاد المسير، ج٣، ص ٣٣.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٦، ص ٢٠٦، وانظر ص ٢٠٧.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، ج١١، ص ٣٤٠ - ٣٤١، وانظر ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٦، ص ٢٠٦.

(٥) الطبري، تفسير الطبري، ج٧، ص ٣٤٤.

(٦) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٨، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

نسخ، وأصبح عاماً في الجهل^(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَتْلُوَنَّ إِنَّهُمْ لَيَسَّ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَتِرٌ صَلَاحٌ فَلَا تَسْتَلِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَأُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦).

فالجهل هنا هو:

ضد العلم، وهو المعنى المناسب لمقابلته بقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَلَسِنُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمَا يُدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣).
والجهل بمعنى:

ضد الحلم: فالجاهلون هم سفهاء الأحلام^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥).
والجهل هنا له معان هي:

- ١ - ضد الحلم: أي لا نطلب الجاهلين للجدال والمراجعة والمشاتمة^(٤)، وإنما لا نطلب دين الجاهلين^(٥).
- ٢ - ضد العلم: أي إن من خلقهم أنهم يتطلبون العلم ومكارم الأخلاق^(٦).

(١) الجوزي، زار المسير، ج٣، ص ٣٠٨.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج١٢، ص ٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

(٤) القرطبي، الجامع، ج١٣، ص ٢٩٩.

(٥) الجوزي، زاد المسير، ج٧، ص ٢٣٠.

(٦) ابن عاشور تفسير التحرير، ج٢٠، ص ١٤٦.

جاهلون

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (١٨٩) ﴿يوسف: ٨٩﴾.

فالجهل هنا هو:

ضد العلم: أي في حالة جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وما إليه صائر أمره وأمركم^(١).

ضد الحلم: فهذا دليل على أنهم كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء، لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته، ويدل على أنه حسنت حالهم الآن، أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

فالجهل هنا هو:

ضد الحلم: فالجاهلون يومئذ هم المشركون، إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم، فعلمهم الله متاركة السفهاء^(٣).

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَمَالِدِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الزمر: ٦٣).

فالجهل هنا هو:

ضد العلم: لأنهم جهلوا دلالة الدلائل المتقدمة، فلم تفد شيئاً،

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج١٦، ص٢٤٤، وانظر القرطبي، الجامع، ج٩، ص٢٥٦.

(٢) القرطبي، الجامع، ج٩، ص٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج١٩، ص٦٩، وانظر الطبري، تفسير الطبري، ج١٩، ص٣٤ - ٣٥، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٣١.

فعموا عن دلائل الوجدانية التي هي بمرأى منهم ومسمع، فجهلوا دلالتها على الصانع الواحد، ولم يكفهم هذا الحظ من الجهل حتى تدلوا إلى حضيض عبادة أجسام من الصخر الأصم. وحذف مفعول «الجاهلون» لتنزيل فعلتهم منزلة اللازم، كأن الجهل صار لهم سجية فلا يفقهون شيئاً^(١).

جهالة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧).

ومعنى الجهل:

١ - العمد: أنهم يعملون ذلك على عمد منهم لله سبحانه وتعالى، وكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته^(٢).

٢ - ضد العلم: والجاهل بالشيء هو الذي لا يعلمه، ولا يعرفه عند الإقدام عليه، أو على حد تشبيهه بالجاهل، وإن كان عالماً به، لإتيانه الأمر الذي لا يأتي مثله إلا أهل الجهل به^(٣).

٣ - ضد الحلم: والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية^(٤).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا كَمَا سَلِّمْتُمْ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ وَأَصْلَحْ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤).

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٢٤، ص٥٧.

(٢) الطبري، تفسير الطبري، ج٨، ص٨٩ - ٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٩١، وانظر زاد المسير، ج٢، ص٧.

(٤) ابن عاشور، تفسر التحرير، ج٤، ص٢٧٨.

فالجهل هنا:

- ١ - ضد العلم: أنه من اترف منكم ذنباً، فجهل بافترافه إياه، ثم تاب وأصلح ﴿فَأْتَهُ غُفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لذنبه إذا تاب وأتاب، أي إنه لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر^(١).
- ٢ - ضد الحلم: إذ يبدو أنه المناسب هنا، لأنه عمل سوءاً عن حماقة من نفسه وسفاهة^(٢).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٩).

والجهل يعني:

- ١ - ضد الحلم: أي جهلوا بركوبهم ما ركبوا في معصية الله، وسفهاوا بذلك^(٣).
- ٢ - ضد العلم: أي انتفاء العلم بما يجب، والمراد جهالتهم بأدلة الإسلام^(٤).

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يُنْبِئُ فَنَسِيئُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

فالجهل بمعنى:

- ١ - ضد العلم: أي عن طريق الخطأ^(٥).

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج١١، ص ٣٩٣.
(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٦، ص ٢٥٩.
(٣) الطبري، تفسير الطبري، ج١٤، ص ١٩٠.
(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج١٣، ص ٣١٢.
(٥) القرطبي، الجامع، ج١٦، ص ٣١٢.

الجاهلية

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْآمَنَةِ نُجُاسًا يَغشَى
طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ
فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا
هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلَبِئْسَ لِلَّهِ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ (آل عمران: ١٥٤).

الضمير في «أهمتهم»، يرجع إلى المنافقين.
والجاهلية هي:

نسبة إلى أهل الشرك بالله^(٢) الذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً،
فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، فبقيت
معارفهم كما هي من عهد الجاهلية^(٣).

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ (المائدة: ٥٠).

الضمير في «يبغون»، يعود إلى اليهود، والجاهلية تعني: أحكام
عبدة الأوثان من أهل الشرك^(٤).

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ﴿الأحزاب: ٣٣﴾.

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٢٦، ص ٢٢٢.

(٢) الطبري، تفسير الطبري، ج٤، ص ص ١٤١ - ١٤٢.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٤، ص ١٣٦.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، ج١، ص ٣٩٤.

وفي تفسير الجاهلية الأولى رايان:
الأول:

هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، أو هي: ما بين آدم ونوح، أو هي: ما بين نوح وإدريس أو نوح وإبراهيم، أو ما بين موسى وعيسى، أو هي زمان داود وسليمان. وقد خالف الشعبي ذلك فحددها بالفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ، ويرى بعض المفسرين أنها سميت بالجاهلية الأولى لأن المرأة في تلك الفترة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير المخيط الجانبين، وتلبس الرقاق، ولا توارى بدنها، وتظهر ما يقبح إظهاره، وتتمشى بين الرجال، وكانت تجلس مع زوجها وعشيقتها، فينفرد عشيقها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل^(١).

الثاني:

أنها نسبة إلى الجاهل، لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، وقد وصفها بالأولى لأنها أولى قبل الإسلام، وجاء الإسلام بعدها. وليس ثمة جاهليتان أولى وثانية، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَهْلَكَ عَادًا أُولَىٰ﴾ (النجم: ٥٠). وكقولهم: العشاء الآخرة^(٢). وليس ثمة عشاء أولى، بل المغرب هي العشاء الأولى.

ومع ذلك، فإنه يمكن توجيه التفسير الأول بأنه مرحلة من مراحل تطور المجتمعات البشرية، وأن الجاهلية الثانية هي الجاهلية التي تُعورف عليها بأنها سبقت الإسلام بمئة وخمسين سنة أو مئتي سنة.

(١) القرطبي، الجامع، ج٤، ص ١٤٤، ص ١٧٩ - ١٨٠، وانظر الطبري، تفسير الطبري، ج٢٢، ص ٥٤، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٢٢، ص ١٣.

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾ (الفتح: ٢٦).

فالحمية، فعيلة من قول القائل: حمى فلان أنه حمية ومحمية، وقال تعالى: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ»، لأن الذين فعلوا من ذلك، كان جميعه من أخلاق أهل الكفر^(١). كما أن إضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية^(٢).

وهكذا يمكن أن نحصر تلك التفسيرات للجهل ومشتقاته في القرآن الكريم، حسبما ذكره أولئك المفسرون في معنيين اثنين هما:

١ - ضد الحلم، والجهل هنا يشتمل على معاني: الحماسة والجدال، والمشاتمة والنزاع، والسفه والظلم، كما يتضمن صغر السن، وسوء المعاملة، والإقدام على العمل من غير روية.

٢ - ضد العلم، والجهل هنا بمعنى: تصور الشيء على خلاف حقيقته، ويأتي بمعنى ضد الخبر، وعدم المعرفة المسبقة بالشيء، والعلم: هو طلب العلم، والسعي وراء مكارم الأخلاق.

وقد صار الجهل صفة لازمة وسجية ثابتة في نفوس مجموعات ثلاث اقترنت به، هي: اليهود، والكفار، والمنافقون.

أما المعنى الثالث الذي قال به الطبري في تفسير معنى «الجهالة» بالعمد، في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، فهو معنى يدخل في المعنى العام الأول، الذي دارت حوله الآيات السابقة، أي ضد الحلم، لأنه اشتمل على عصيان الله عز وجل.

٣ - ويمكن أن يتبين المرء من ذلك أن الصفات النقيضة للحلم،

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج٢٦، ص١٠٤.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٢٦، ص١٩٤.

هي الصفات النقيضة للإسلام: أي الجهل، أي إن هناك معنى دينياً تشتمل عليه بعض تلك الآيات، وهو يعني الكفر والكفار عامة، وهذا صريح في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿لَا تَبْنِي الْجَهْلِينَ﴾، وهو أيضاً صريح في قوله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾، وفي قوله عز من قائل، في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) . . . إلخ.

فالجهل بالدين، الكفر، هو أصل منطلقات الجهل، أي هو عبادة من دون الله، أي الوثنية، بالنسبة للوثنيين، والشرك بالنسبة لليهود والنصارى، ثم الحمافة والكبرياء بالنسبة للمنافقين، ودافع هذا الجهل أمران هما: ضد الحلم وضد العلم.

ب - في الحديث الشريف

فمن الأحاديث الشريفة التي جاء فيها الجهل ومشتقاته:

جهل

قال ﷺ: «وإن جهل أحدكم جاهل، وهو صائم، فليقل إني صائم»^(١).

وقال عليه السلام: «الصيام جنة، فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله، أو شتمه، فليقل إني صائم . . .»^(٢).

وقال عليه السلام: «إنكم لتبخلون وتُجبنون وتجهلون»^(٣).

جهل

وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»^(٤).

(١) ابن عبد الرحيم، تحفة الأحوذى، ج٣، ص ٤٧٢.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج٢، ص ٦٧٠.

(٣) ابن سورة، سنن الترمذي، ج٤، ص ٣٤٧.

(٤) البخاري، صحيح، ج٥، ص ٢٢٥١.

وقال ﷺ «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي...»^(١).

وقال ﷺ: «إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج» أي القتل^(٢).

وقال ﷺ: «القضاة ثلاثة، اثنان في النار، وواحد في الجنة، رجل علم الحق ففضى به، فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل جار في الحكم فهو في النار»^(٣).

جُهَال

قال ﷺ: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال، يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون»^(٤).

ولا تخرج مفردات الجهل هنا عن المعنيين السابقين في القرآن، ويكاد المعنى الأول الذي هو ضد الحلم يكون هو الغالب، أما المعنى الآخر الذي هو ضد العلم، فهو يسير أيضاً حسب المعنى السابق، وإن كان المعنى (ضد الخَيْر) هو بالتحديد أهم مدلول للجهل كما هو بين من الحديث الشريف الأخير، والحديث عن القضاة، ولكن الأمر هنا لا يتعلق بما قبل الإسلام من شرك ووثنية، وإنما هو جهل تطبيق، وليس جهل اعتقاد.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥٩.

(٣) ابن ماجه، سنن...، ج ٢، ص ٧٧٦.

(٤) البخاري، صحيح، ج ٦، ص ٢٦٦٥.

الجاهلية

قال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»^(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «من كره من أمره شيئاً، فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً، مات ميتة جاهلية»^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»^(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية (أو قال بكفر)»^(٥).

وقال ﷺ في حجة الوداع: «ألا وكل دم من دماء الجاهلية موضوع.. ألا وإن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع»^(٦).

وقال عليه الصلاة والسلام: «الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»^(٧).

وقال عليه الصلاة والسلام: «وأئما حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدة»^(٨).

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٤٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٥٨٨.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج٢، ص ٦٤٤.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٦٩.

(٦) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ج٢، ص ١٠١٥.

(٧) مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص ١٩٥٨.

(٨) المصدر السابق، ص ١٩٦١.

وقال عليه السلام: «ما بال دعوى الجاهلية..» وذلك بعد كسح رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!«^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «والله، لقد أدركتهم في الجاهلية، وإن الرجل ليرعى على الحي، ما به إلا وليدتهم يطؤها»^(٢).

وفي الأحاديث الشريفة يتضح معنى الجهل والجاهلية اتضاحاً تاماً، فقد اشتملت على كل حالة يستنكرها الإسلام وينسبها إلى الوثنية، ويمكن اختصارها في التصرف تصرفاً لا يحكمه العقل، وينطلق من العاطفة العنيفة غير المتأنية المتاملة في الحدث. وهي إذا تضمن التعبير عن الفترة الزمنية السابقة للإسلام، فإن الأحاديث الثلاثة الأخيرة، تؤكد هذا القسم الزمني، أي الوثنية خاصة.

وإذا كانت الآيات القرآنية الكريمة التي نصت على الجاهلية كلها مدنية، فإن استعمال لفظة «الجاهلية» عموماً، لم يكن إلا في المدينة؛ وعلى هذا يمكن القول، كما هو واضح من ورودها في حجة الوداع، واشتمالها في الأحاديث الشريفة على معاني الأحكام: إنها قيلت أيضاً في الفترة المدنية.

بل لقد عرفت هذه اللفظة في المدينة أيضاً قبل موقعة بدر، في السنة الثانية للهجرة، إذ يقول عبد الرحمن بن عوف: «كاتب أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صياغتي بمكة وأحفظه في صياغته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٩٩.

باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبد عمرو. فلما كان في يوم بدر..»^(١).

وهكذا أصبحت هذه اللفظة شائعة على الألسن مبينة الأوضاع المخالفة للإسلام، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جمع حتى يروا الشمس على ثبير، وكانوا يقولون: أشرق ثبير، كيما نغير، فأفاض رسول الله ﷺ قبل طلوع الشمس»^(٢). . . وقول معاوية بن الحَكَم السَلَمي: «إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان.. . ومنا رجال ينطيرون..»^(٣).

ويدل تنسيق استخدام مادة «جهل» على هذا دلالة قاطعة: ففي «صيغة الفعل المضارع»، كانت السور الثلاثة (الأنعام - الأعراف - هود)، كلها مكية، وهذا تأكيد على استمرار العرب الوثنيين على ما هم فيه من غي وضلالة، وهذا متضمن أيضاً في ذكر ردة بني إسرائيل إلى عبادة الأوثان في آية الأعراف (١٣٨).

أما في صيغة المبالغة (جهول)، أو صيغة اسم الفاعل (جاهل)، مفرداً أو جمعاً، فإن المعنى ينحصر في عدم العلم، وضد الحلم، وقد جاء هذا في كل السور المكية، ما عدا سورتي البقرة والأحزاب المدنيتين. وهكذا جاء المصدر (جهالة) في سورتي مكيتين، هما: (الأنعام والنحل)، وسورتين مدنيتين هما: (النساء والحجرات).

وفي المرحلة المدنية الخالصة، جاء المصدر الصناعي «الجاهلية» معرفاً، يشير إلى نقيض الإسلام تماماً، من علم، وحلم، ودين.

(١) البخاري، صحيح، ج١٠، ص١٣١. صياغتي: صياغة الرجل خاصيته، ومن يصني إليه.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند، ج١، ص٤٢.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، ج١، ص٣٨٢.

الفصل الثاني اشتقاق الكلمة ورموزها

الأصل الاشتقاقي

من الملاحظ أن كثيراً من ألفاظ اللغة العربية مشتقة من أصول مادية ترتبط بالممارسات الحياتية التي كان يعتمد عليها الإنسان العربي خلال مراحل التاريخ القديمة، وعلى هذا الأساس نجد كلمة «جهل» ترتبط بأحد المصادر التالية:

اللغة العربية الجنوبية

من حيث صلة اللغة العربية الشمالية باللغة العربية الجنوبية، كإحدى اللغات السامية، فإن «المجهل والمجهلة والجهل والجهيلة» تعني: الخشبة التي يحرك بها الجمر والتنور، وهي لغة يمانية. ولعل فيها ما يحول بينك وبين النار التي تجهل نتائجها^(١).

في اللغة الفصحى

البيئة

توصف الصحراء بأنها «مجهل ومجهولة»^(٢)، والأراضي المجهولة: هي التي لا يُهْتَدَى فيها - فهي إغفال - ليس بها أثر عمارة^(٣). وهذا يعني عدم المعرفة حيث يضل بها الإنسان، ومن

(١) الزبيدي، تاج العروس «جهل».

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن منظور، اللسان، «عمي».

معاني الجاهلية عدم العلم بالشيء. وقد ذكر شعراء الجاهلية هذه
الصفة، قالت جنوب في أخيها:

وَخَرِقُ تَجَاوَزْتُ مَجْهُولَةً بِخَرْقَاءِ حَرْفٍ تَشْكِي الْكَلَالَا^(١)
وقال امرؤ القيس يصف حماراً:

يُورِدُ مَجْهُولَاتٍ كُلَّ خَمِيلَةٍ يَمُجُّ لُفَاظَ البَقْلِ فِي كُلِّ مَشْرَبٍ^(٢)
وقال الأعشى:

كَلَفْتُ مَجْهُولَهَا نَفْسِي وَشَايَعَنِي هَمِّي عَلَيَّهَا إِذَا مَا آلَهَا لَمَعَا^(٣)
وقال كذلك:

كَلَفْتُ مَجْهُولَهَا نُوقًا يَمَائِيَةً إِذَا الحَدَاةَ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا^(٤)
وقال أيضاً:

أَذْهَبَتْهُ بِمَهَامِهِ مَجْهُولَةً لَا يَهْتَدِي بُرْتُ بِهَا أَنْ يَقْصِدَا^(٥)
وقال سويد بن أبي كاهل:

فَرَكِبْنَاهَا عَلَى مَجْهُولَهَا بِصِلَابِ الأَرْضِ فِيهِنَّ شَجَعٌ^(٦)
الناقة

(١) العلوي، نضرة الإغريض، ص ١١٧. خرق: الفلاة الواسعة. خرقاء: ناقة لا
تبالي بالمخاطر. الكلال: الإعياء.

(٢) ابن منظور، اللسان، «الفظ»، والبيت غير موجود في ديوانه.

(٣) ديوانه، ص ١٠٣. الآل: السراب.

(٤) القرطبي، الجامع، ١٠٠، ص ١٤٣ وهو غير موجود في ديوانه. الأكساء: جمع
الكنسي، وهو مؤخر العجز. حقدوا: خفوا في العمل وأسرعوا.

(٥) ديوانه، ص ٢٢٩. المهامه، جمع مهمة، وهي الصحراء. البرت: الدليل.

(٦) ابن الأباري، شرح المفضليات، ص ٣٩٠. ركبناها: تعسفنا ركوبها على جهل
بمسالكها وأعلامها. صلاب الأرض: بخيل صلاب الحوافر، وأرض الفرس:
حوافرها. الشجع: جنون من نشاط.

وصف شعراء الجاهلية الناقة بأنها «مجهال»، فقال حميد بن ثور:

جَهُولٌ كَانَ الْجَهْلُ مِنْهَا سَجِيَّةً عَشْمَشْمَةً لِلْقَائِدِينَ رَهْوَقُ^(١)

وقال ابن مقبل:

مَجْهَالٌ رَأَدِ الضُّحَى حَتَّى تُوزَّعَهَا كَمَا تُوزَّعُ عَنْ تَهْدَائِهِ الْخُرْفَا^(٢)

كما قد يفهم هذا المعنى من قولهم: «ناقة مجهولة [أي إنها] لم تحلب قط»^(٣).

عاد والحلم

ومن اللافت للنظر أن الجِلم كان صفة محببة إلى العرب، ولذلك نجدهم ينسبونه إلى عاد، رغم أن قوم عاد لم يكونوا - حسب المفهوم الديني - حلما. مما يرجح أن المعنى الذي سناقشه بعد حين، هو التحكم في النفس، يقول زهير بن مسعود الضبي:

كَأَنَّهُمْ عَادٌ حَلُومًا إِذَا طَاشَ مِنَ الْجَهْلِ الْقَطَارِيبُ^(٤)

ويقول النابغة في الغساسنة:

أَخْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَادُ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْمَعْقَةِ وَالْآفَاتِ وَالْإِثْمِ^(٥)

(١) ديوانه، ص ٣٦. عشمشمة: ناقة عزيزة النفس. رهوق: كأنها ترهقك إذ تقودها حتى تكاد تطؤك بخفيها.

(٢) ديوانه، ص ١٨٧. المجهال: الناقة التي تخف في سيرها. رأد الضحى: وقت ارتفاع النهار واشتداد الحرارة. توزعها: تكفها وتمنعها شدة السير. التهذاء: الهذيان. الخرق: الأخرق. وانظر: الزمخشري، أساس البلاغة «جهل».

(٣) ابن منظور، اللسان، «جهل».

(٤) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص ٩٤. القطاريب: السفهاء الجهال.

(٥) ديوانه، ص ١٠١. المعققة: يريد عقوق الرحم، أي هم براء من العقوق والآفات، والعيوب.

وقال الأعشى:

إِذَا مَا هُمْ جَلَسُوا بِالْعَشِيِّ فَيَأْخُلَامُ عَادٍ وَأَيْدٍ هُضْمٌ^(١)

وقال الآخر أيضاً:

عَلَى امْرِئٍ هَذَا عَرْشَ الْحَيِّ مَضْرَعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْأَخْلَامِ مِنْ عَادٍ^(٢)

وقال الآخر أيضاً:

وَأَخْلَامُ عَادٍ لَا يَخَافُ جَلِيسُهُمْ وَإِنْ نَطَقَ الْعَوَزَاءُ عَرَبَ لِسَانٍ^(٣)

ففي هذه الأبيات تركيز على القيمة الاجتماعية لأولئك السادة الذين يتصدرون قيادة عاد أو مجالسهم، وهي قيمة سنجدها تتردد كثيراً في الشعر العربي، حاملة للفكرة نفسها.

من رموز الجهل

الفراش

ويكشف عن معنى الحلم، في مقابل الجهل بمعنى الطيش، التمثيل له بانقضاء الفراش على النار، كما قال جرير:

أَزْرَى بِحَلْمِكُمْ الْفَيْاشُ فَأَنْتُمْ مِثْلُ الْفَرَّاشِ عَشِينَ نَارَ الْمُضْطَلِّي^(٤)

وهكذا جاء المثل: أجهل من فراشة.

راعي الغنم

بل ضربوا المثل براعي الغنم، فقالوا:

(١) ديوانه، ص ٤١. هضم: يد هضم، تجود بما لديها، والجمع هضم.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال، ج١، ص ٤٠٧.

(٣) البصري، الحماسة البصرية، ج١، ص ٤٨٣.

(٤) شرح ديوانه، ص ٤٤٧. الفياش: المفاخرة.

أجهل من راعي ضأن: لأن بعده عن الناس فوق بعد راعي الإبل^(١).

فقد أصبح الفراش رمزاً للإيغال في الجهل، لأنه يُقدّم على حرق نفسه، على الرغم من أن نهايته فيها. ويكشف الرمز عن بعد عميق للاندفاع مع الرغبات والتزوات من غير أن يكون هناك تبصر وتدبر لما سيواجهه جراء ذلك.

أما رمز الراعي، فذو دلالة كبيرة للأثر النفسي الذي يحدثه التوحش والاعتزال عن الآخرين؛ إذ يترتب على ذلك ألا تنهذب أخلاقه، ولا تتوطن نفسه على الاجتماع بهم، فيتصرف تصرفاً أهوج، أحرق، يضعف العقل عن توجيهه نحو مساره الصحيح. وفي التراث الأدبي أمثال عدة تتفق في مدلولاتها مع هذين البعدين لرموز الجهل ونقيضه الحلم.

(١) العسكري، جمهرة الأمثال، ج١، ص ٣٣٤.

الفصل الثالث

المعنى الدلالي في الشعر

الصورة العامة للجهل والحلم

إذا نظرنا إلى الكلمة ومشتقاتها من الناحية الدلالية في شعر ما قبل الإسلام، فإننا سنجد أن جميع الدلائل المنبثقة من الجذر «ج - ه - ل» تؤدي إلى أنه سلوك ثورة وغضب، وعاطفة هوجاء عمياء من غير تفكير في العواقب الوخيمة المترتبة عليه. إنه سلوك الرجل ذي الطبيعة العاطفية الجياشة، الذي ليست لديه القدرة على التحكم في مشاعره وعواطفه، ولكنه يستسلم لما تمليه عليه المشاعر العنيفة، فلا يميز بين الصواب والخطأ، ولذلك علق ابن منظور على قول النابغة:

دَعَاكَ الْهَوَىٰ وَاسْتَجْهَلَنَكَ الْمَنَازِلُ وَكَيْفَ تَصَابِي الْمَرْءِ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ

فقال: «وكل ما استخفك، فقد استجهلك»^(١). إن حالة الخفة الناجمة عن الجهل تعني: التسرع الشديد نحو ممارسة الفعل. كما نجد ذلك واضحاً في قول ابن أحمر الشاعر المخضرم:

وَدُهُمِ تُصَادِيهَا الْوَلَائِدُ جِلَّةٍ إِذَا جَهَلْتَ أَجْوَأَهَا لَمْ تَحْلَمْ^(٢)

فالجهل هنا: «جهلت»، كناية عن الغليان الشديد، بحيث تصبح الإفرازات الداخلية متهيجة جداً، فلا يمكن بحال من الأحوال إيقافها،

(١) ابن منظور، اللسان، «جهل».

(٢) شعره، ص ١٤٩. الدهم: القدور السود. تصاديبها: تداريبها وترفق بها. جهلت أجوائها: غلت وفارت. لم تحلم: لم تسكن بهدوء لعظمها.

أو السيطرة عليها، وتُلغى - نتيجة ذلك الهيجان الهادر - أية سلطة للحلم «لم تحلم».

إن هذه الصورة تمثل الوضعين الخارجي والداخلي للجهل، بحيث لا تخرج عن حالة التوتر والغضب. وهناك كناية أخرى تبين الضغط الداخلي، كما يعكسه الضغط الخارجي، وهي «الحبى». يقول كعب بن سعد الغنوي:

حَلِيمٌ إِذَا مَا سَوْرَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقَتْ حُبَى الشَّيْبِ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غَلُوبٌ^(١)

ويبين هذا البيت سطوة الجهل وعلاقته بالانفعال الشديد، إذ إن قوة الغضب تؤدي إلى حل حبى الشَّيْبِ، وهم الذين يمكن أن يكونوا أقل تهوراً واندفاعاً ممن هم أصغر منهم سناً.

وتأتي الصورة نفسها عند الخنساء التي تقول:

فَتَى كَأَنَّ ذَا حَلِيمٍ رَزِينٍ وَتَوْدَةٍ إِذَا مَا الْحُبَى مِنْ طَائِفِ الْجَهْلِ حُلَّتِ^(٢)

وفي مقابل هذه الصورة عن الجهل تأتي صورة أخرى عن الحلم، لتبين كيف يكون الجهل هو الغضب؛ أما الحلم، فإن تحصيله ليس سهلاً حتى ممن أدرك الأمور وعرفها، كما يقول مرة بن منقذ:

حَلِيمٌ فِي شِرَاسَتِهِ إِذَا مَا حُبَى الْحُلَمَاءِ أَطْلَقَهَا الْمِرَاءُ^(٣)

ويقول الحطيئة، مادحاً بني سعد:

يَسُوسُونَ أَخْلَاماً بَعِيداً أَنَاتُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيفَةُ وَالْجَدُّ^(٤)

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص ٩٥، الحبى: جمع حبة حبة، وهي عمامة أو نحوها، يجمع بها بين الظهر والساقين.

(٢) ديوانها، ص ١٩.

(٣) الخالديان، الأشباه والنظائر، ج ٢، ص ١٥٩. المرء: الجدول والخصومة.

(٤) ديوانه، ص ١٤٠.

وانطلاقاً من ذلك، فإن هذا المعنى، هو المعنى الدلالي الأول الذي تعود إليه جميع الدلالات في الجاهلية، وتنبثق منه، فيتكون لدينا معنيان متقابلان، هما - حسب هذا المفهوم: جهل/حلم.

ثنائية جهل/حلم

تبين لنا أن «الجهل سلوك نمطي لصيق بالرجل ذي الدم الحار، الذي يميل إلى فقدان مزاجه لأذنى إثارة، فيستسلم لإحساساته المتوترة. أما الحلیم، فهو الرجل الذي يعرف كيف يسيطر على انفعالاته وعواطفه المحمومة، ويتمكن من تهدئة نفسه وإخضاعها للعقل والحكمة»^(١). ولذلك فإنه حتى الحلم نفسه، قد ينقلب إلى جهل، نتيجة لتلك التصرفات. وقد جاءت الكناية «زلت النعل» لتعني عدم القدرة على الثبات والاتزان أمام تحديات الجهل.

يقول زهير:

تَدَارَكْتُمَا الْأَخْلَافَ قَدْ نُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانٌ إِذْ زَلَّتْ بِأَخْلَامِهَا النَّغْلُ^(٢)

وإذا كان الجهل طيشاناً وانفلاتاً من رقابة العقل والتحكم في المواقف، فإن أماراته الخارجية سرعان ما تظهر على صاحبها، هادرة صارخة، يقول رجل من بني ضبة:

إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَغْلِبْ لَكَ الْجَهْلُ لَمْ تَزَلْ عَلَيْنِكَ بُرُوقُ جَمَّةٍ وَرَوَاعِدُ^(٣)

فالجهل والحلم، إذن، قوتان متصارعتان، لا تحتاج الأولى إلى تأمل في الموقف، مثلما تحتاج إليه الثانية. ومع ذلك، فلا بد من التفريق بين الحلم الإيجابي والحلم السلبي. فالحلم حين يمر بمرحلة التأمل والتفكير لا بد أن يعكس حالتين: الضعف أو القوة.

(١) Izutsu, «God and Man» P.207

(٢) شرح شعره، ص ٩١. الأخلاف: عيس وذيبيان. نل عرشها: هدم بناؤه.

(٣) الأخفش، كتاب الاختيارين، ص ١٦٨.

وتدل الإشارات كلها على أن الحلم في الجاهلية هو الحلم ذو الجانب الإيجابي، الحلم الذي يجابه الموقف من منطلق القدرة على تحديات الجهل. فالرجل الضعيف بطبيعته لا يطلق عليه أساساً حلم، مهما بلغ من تهدة غضبه عندما يُمس إحساسه، إنه رجل ضعيف؛ أما الحلم، فهو الذي يمتلك قوة، قوة تدفعه إلى ممارسة جميع أنواع العنف عندما يستثار، وفي الوقت نفسه لديه قوة على كبح جماح نفسه عن الإقدام على العنف^(١). يقول سالم بن وابصة:

إِنَّ مِنَ الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكِرَمِ^(٢)
وهكذا يقول عترة:

يَرُونَ اخْتِمَالِي عِفَّةً فَيُرِيْبُهُمْ تَوَفَّرُ حِلْمِي أَنْتِي لَسْتُ أَغْضِبُ
تَجَافَيْتُ عَنْ طَبْعِ اللَّئَامِ لِأَنْتِي أَرَى الْبُخْلَ يَنْشَأُ وَالْمَكَارِمَ تُطَلَّبُ^(٣)
ويقول قيس بن رفاعة:

أُولُو أَنَاةٍ وَأَخْلَامٍ إِذَا غَضِبُوا لَا قَصْفُونَ وَلَا سُودَ رَعَابِيْبٍ^(٤)
فالحلم هنا يعني: التأمي والتريث في ردة الفعل بما قد يوصف بالضعف، فيشعر منه الجبن والتردد، ولكنه في واقع الأمر حلم صادر عن قوة وتثبت، لا عن عجلة وتهور. ولذلك قال قيس بن زهير العبي:

أُظُنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ^(٥)
فالحلم يظل قوياً حين يتجاسر عليه من يرى فيه ضعفاً، وحين

(١) Izutsu, God., P.207.

(٢) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج٣، ص ١١٦١.

(٣) ديوانه، ص ٩٤.

(٤) ابن منظور، اللسان، «قصف». رجل قصف: سريع الانكسار عن النجدة.

(٥) المرزوقي، الحماسة، ج١، ص ٤٢٨.

يصمد لهذه الجراءة، فإنَّ جَهْلَ أولئك يصبح ضعفاً، ويبقى الحلم مظهر قوة، وليس مظهر عجز. وقد أوضح غريقة بن مسافع العبسي نوع ذلك الحليم. فقال:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنٌ أَهْلُهُ مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيْبٌ^(١)

ويتجلى معنى السيطرة على الذات، والقدرة على كبح جماحها في الربط بين الحلم والصبا - أي جهل السن، كما يُستشف ذلك من قول امرئ القيس:

إِلَى مِثْلِهَا يَزْنُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً إِذَا مَا اسْبَكَرَتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلٍ^(٢)

وقول المخبل السعدي:

ذَكَرَ الرَّبَابَ وَذَكَرَهَا سُقْمٌ فَصَبَا وَلَيْسَ لِمَنْ صَبَا حِلْمٌ^(٣)

فالصباة والصبا من أعمال الصبيّة، أي: اللهو واللعب.

ولذلك قال النمر بن تولب:

أَلَيْسَ جَهْلًا بِذِي شَيْبٍ تَذْكُرُهُ مَلْهَى لِيَالٍ خَلَّتْ مِنْهُ وَأَيَّامٌ^(٤)

وليس بعيداً بعد ذلك عن هذه المفارقة بين الجهل - الصبا/ الحلم - تقدّم السن، قول عامر بن الطفيل:

فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْحِلْمِ الثَّانِي عَلَى مَهَلٍ وَلِلْجَهْلِ الشَّبَابُ^(٥)

وقول النابغة:

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص ١٠٠.

(٢) ديوانه، ص ١٨. اسبكرت: امتدت وتم طولها. الدرع: ثوب تلبسه الشابة. المجول: الثوب الخفيف يلبسه الصبيان.

(٣) ابن الأثيري، شرح المفضليات، ص ٢٠٧.

(٤) شعره، ص ١١٢.

(٥) ديوان شعره، ص ١٢٩.

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظَنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ^(١)

ويعكس القول التالي لعبيد ذلك الارتباط الوثيق بين المرحلتين:

وَكُهُولٌ ذَوِي نَدَى وَحُلُومٍ وَشَبَابٌ أَنْجَادٍ غُلِبَ الرُّقَابُ^(٢)

فالجهل مرتبط بالشباب، بحيث يؤدي إلى عواقب وخيمة. قال

عدي:

أَعَادِلُ إِنْ الْجَهْلَ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى وَإِنَّ الْمَتَايَا لِلثُّفُوسِ بِمَرَضٍ^(٣)

ومن ثم «فإن عدم القدرة على التمييز بين الحلم الحقيقي والضعف لا تظهر في مجال الحياة العامة أو العلاقات الإنسانية الخاصة فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى المستوى الديني. ولعل موقف كفار مكة من أظهر هذه المواقف، كما بين لنا القرآن الكريم. فكفار مكة لم يتقبلوا الإسلام، بسبب غطرستهم وثقتهم المفرطة في أنفسهم، مع تحذ للدين الجديد عندما رأوا أن العذاب الموعود لم يحل بهم كما جاء في القرآن الكريم. فهم قد فهموا الحلم الإلهي على أنه وداعة وخلو من القوة»^(٤).

وإذ يرتبط الجهل بالغضب، والحلم بالسيطرة، تتولد علاقة جديدة بينهما، فالجهل يدفع إلى التنفيذ واستعمال القوة، أما الحلم، فإيقاف لهما وتحكم فيهما، يقول الشاعر المخضرم معبد بن علقمة:

وَتَجْهَلُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ^(٥)

(١) ديوانه، ص ١٠٩.

(٢) ديوانه، ص ٢٢.

(٣) ديوانه، ص ١٠٣.

(٤) *Izutsu, God., P.209.*

(٥) المرزوقي، الحماسة...، ج٢، ص ٧٥٢.

ولذلك ارتبطت الحرب بالجهل، فقال عمرو بن معد يكرب:

الْحَرْبُ أَوْلُ مَا تَكُونُ فِتْيَةً تَسْمَى بِزَيْنَتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ^(١)

وقال عبد القيس بن خفاف البرجمي:

حَلِيمٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْحُرُوبِ إِذَا مَا تَلَّظَتْ تَرَاهُ جَهُولًا^(٢)

غير أنه من الصعب الجمع بين هاتين الخصلتين المتناقضتين، فهما لا يجتمعان إلا لمن أتيح له حظ من القوة والعزم، ويوضح هذا المعنى قول القائل:

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةٌ فَبِالْحِلْمِ سُذْلًا بِالتَّسْرُعِ وَالشَّتْمِ
وَلِلْحِلْمِ خَيْرٌ فَاغْلَمَنَّ مَعْبَةٌ مِنَ الْجَهْلِ إِلَّا أَنْ تَشْمَسَ مِنْ ظَلَمٍ^(٣)

ومن هنا ارتبط الحلم بتقدم السن، كما مر بنا، فاستعملت عبارة «العصا قرعت لذي الحلم» كناية عن كبر السن، يقول المثلث:

لِذِي الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُفْرَعُ الْعَصَا وَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْلَمَا^(٤)

وقال الحارث بن وعله الذهلي:

وَرَزَعْمُنْمْ أَنْ لَا حَلُومَ لَنَا إِنْ الْعَصَا قَرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ^(٥)

فاكتساب الحلم، إذن، علامة من علامات السيادة والتقدم في السن. وإذا كان الجهل استجابة فورية تُلصق بكل من يستجيب لها، وتتنامى نحو الأسوأ، فإن الحلم صفة مكتسبة لا بد من الحرص على المحافظة عليها. يقول حاتم:

(١) شعره، ص ١٤٢.

(٢) البصري، الحماسة البصرية، ص ١٢٧.

(٣) المرزوقي، الحماسة، ج ٣، ص ١١١٩.

(٤) شعره، ص ٢٦.

(٥) ابن منظور، اللسان «قرع».

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبَقِ وَدَهُمْ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَ^(١)
ونجد هذا المعنى في قول يزيد بن مالك العامري، معبراً عن
السيطرة على الجهل وامتلاك الحلم:

أَكْفُ الْجَهْلَ عَنْ حُلْمَاءِ قَوْمِي وَأَعْرِضْ عَنِ كَلَامِ الْجَاهِلِينَ^(٢)
ولذلك، فالسيد هو من اتصف بتلك الصفة، يقول المخبل:

وَأَعْطِي مِنَّا الْحِلْمَ أْبْيَضُ مَا جَدَّ رَدِيفُ مُلُوكٍ مَا تَغِبُّ نَوَافِلُهُ^(٣)
ومن ثم، كان من مظاهر الحلم، ما قاله علباء بن أرقم:

وَصَفَّخْتُ عَنْ ذِي جَهْلِهَا وَرَفَذْتُهُ نُضْجِي وَلَمْ تُصِبِ الْعَشِيرَةَ زَلَّتِي^(٤)

وقد قدم كعب بن سعد الغنوي صورة بالغة الدقة والتعبير عن
متطلبات السيادة العربية التي من أهم مقوماتها الحلم، فاستعار للحلم
صورة الإبل، وهي قادمة من المرعى مساءً، في هدوء بعد أن نالت
حظها من الرعي، ويصور الجهل على النقيض تماماً، فهي إبل نأى
بها الراعي بعيداً عن الناس، يقول:

لَقَدْ كَانَ أَمَا حِلْمُهُ فَمُرُوحٌ عَلَيْنَا وَأَمَا جَهْلُهُ فَمَزِيبٌ^(٥)

وهكذا أصبح المجلس العربي هو المجلس الذي تُظله هذه
الخاصية التي يحرص السادة على الظهور بها واكتسابها، يقول طرفة:

تَرَعُ الْجَاهِلُ فِي مَجْلِسِنَا فَتَرَى الْمَجْلِسَ فِينَا كَالْحَرَمِ^(٦)

(١) ديوان شعره، ٢٣٧.

(٢) العسكري، كتاب الصناعتين، تحق. مفيد قميحة، ص ١٠٤.

(٣) الأخفش، كتاب الاختيارين، ص ٦٩٧، الرديف: بمنزلة خليفة. ما تغب: ما
تقطع. نوافله: عطاياه ومواهبه.

(٤) الأصمعي، الأسمعيات، ص ١٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٥. عزيز: غائب.

(٦) ديوان، ص ١١١.

ويقول زهير في مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف:

وإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَخْلَامِهَا الْجَهْلُ^(١)

وقال:

حُكْمَاءُ فِيهِ النَّادِي إِذَا مَا جِئْتَهُمْ جُهْلَاءُ يَوْمَ عَجَاجَةٍ وَلِقَاءِ^(٢)

ويقول الأعشى:

رُجِحُ الْأَخْلَامِ فِي مَجَالِسِهِمْ كَلَّمَا كَلَّبَ مِنَ النَّاسِ تَبَخُّ^(٣)

وتقول الخنساء في أخيها صخر:

وَمَنْ لِحَلِيسٍ مُفْحَشٍ لِحَلِيسِهِ عَلَيْنِهِ بِجَهْلٍ جَاهِدًا يَنْسَرِعُ

وَلَوْ كُنْتُ حَيًّا كَانَ إِطْفَاءُ نَارِهِ بِحِلْمِكَ فِي رَفْقٍ وَحِلْمِكَ أَوْسَعُ^(٤)

ثم إنهم قلما وصفوا النساء بالحلم، إذ الحلم من علامات

الرجولة والسيادة، ولذلك فلعل مفهوم الحلم هنا يقترب من معنى

الغفلة وعدم المبالاة، كما صرح أبو دؤاد بانهن بله، فقال:

يَكْتَبِينَ الْيَلْنَجُوجَ فِي كَبَةِ الْمَثَدِ تَى وَبُلَّةَ أَخْلَامُهُنَّ وَسَامُ^(٥)

والمعنى نفسه نجده عند المرار الذي يميل إلى وصنهن بالحلم،

حسب المفهوم المتعارف عليه، أي الرزانة، وليس الخفة والطيش:

(١) شرح شعره، ص ٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٣) ديوانه، ص ٢٤٣.

(٤) ديوانها، ص ٩٢.

(٥) غرونيوم، دراسات في الأدب العربي، ص ٣٣٧. وانظر ابن منظور، اللسان الكبار.

يكتبين: يستعملن الكباء، وهو عود طيب الرائحة، اليلنجوج: العود: أي

يتبخرن. كبة المشتى: شدة ضرر الشتاء.

بله أخلامهن: أراد أنهن غافلات عن الخنى والريبة. وسام: جمع وسيمة.

بِتَلْهَيْنِ بِنُؤْمَاتِ الضُّحَى رَاجِحَاتِ الْجِلْمِ وَالْأَنْسِ خُفْرُ^(١)

وهكذا «فإن هذا المعنى الدلالي لكلمة (الجهل) يجعلنا نفهم تماماً، كيف أن تقيضها (حلم) اتخذ معنى (عقل). فالعقل يقوم بدوره إذا كنت هادئاً محتفظاً باتزانك. إذن، فالعقل بهذا المفهوم أضيّق من الحلم. بل إن الحلم هو الأساس الرئيس للعقل والتفكير. وحتى نكون أكثر تحديداً، فإن الحلم ليس المرادف الدقيق للعقل، فالعقل مفهوم أضيّق من الحلم. وعلى كل، فالحلم هو أساس العقل، إنه الحالة الهادئة التي تجعل النشاط السوي للعقل ممكناً، وإنها الحالة التي تمكن العقل من القيام بدوره بهدوء وثبات بحيث يصدر أحكاماً صائبة وصحيحة، ولكنهما عملياً يصبحان متساويين في المعنى»^(٢).

فحسان بن ثابت يستخدم الحلم بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، وبطريقة لافتة للنظر، في هجائه لبني الحارث بن كعب:

حَارِ ابْنَ كَعْبٍ أَلَا الْأَخْلَامُ تَزْجُرُكُمْ عَنِّي وَأَنْتُمْ مِنَ الْجُوفِ الْجَمَاحِيرِ
لَا عَيْبَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَلَا عِظَمٍ جِسْمِ الْبِقَالِ وَأَخْلَامُ الْعَصَافِيرِ^(٣)
ويقول عياض بن كثير الضبي:

تَنَابِلَةٌ سُودٌ خِفَافٌ حُلُومُهُمْ وَذُو نَيْرٍ فِي الْحَيِّ يَغْدُو وَيَطْرُقُ^(٤)

ومن المجدي أن نلاحظ أن القرآن الكريم يستخدم الكلمة نفسها للدلالة على المعنى في الآية: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ (الطور: ٣٢).

(١) ابن الأثيري، شرح المفضليات، ص ١٥٤.

(٢) Izutsu, God., P.214.

(٣) ديوانه، ج١، ص ٢١٩. الجوف: جمع أجوف. الجماهير: الضعاف، المستريحون.

(٤) العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١٣٦. النيرب: الشر والنميعة.

ويؤكد المستشرق الفرنسي شارل بلا هذا التقابل بين المعنيين في دراسته بعنوان «رسالة في الحلم» حين قال:

«يدل ما جمعناه من المستندات على أن عدم الغضب - أو كظم الغيظ - والميل إلى العفو المتوقّف على ضبط النفس وسكيتها يغلبان في الجاهلية على غيرها من مقومات الحلم»^(١). وقد سبق للمستشرق الفرنسي بلاشير أن قال عن الجاهلية: «الحقيقة أن كلمة الجاهلية تضم جميع مظاهر العنف والوحشية والتحكمية والزهو والتبجح التي حدّ الإسلام منها أو قضى عليها»^(٢).

وتكون النتيجة هي:

أن الجهل ضد الحلم «وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام»^(٣). ومن هنا جاء إطلاق «أبي جهل»، على أبي الحكم بن هشام الذي كُتِبَ بذلك لبداءة لسانه وعداوته الشديدة للنبي ﷺ. ويبدو أنه سمي بهذا بعد السنة السادسة للبعثة، وهي السنة التي أسلم فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأن الرسول ﷺ قال: «اللهم أئد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»^(٤).

ويمكن بعد ذلك جمع تلك المعاني كلها في قول النابغة الجعدي:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَخْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدِّرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَضْدَرَا

(١) بلا، رسالة في الحلم، ص ١٦٦ - ١٦٧، وانظر: ابن أبي الدنيا، الحلم.

(٢) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ص ٤٤.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج ١٩، ص ٦٩.

(٤) الجوزي، زاد المسير، ج ١، ص ٣٧٠.

فَفِي الْجِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَفِي الْجَهْلِ أَخْيَانًا إِذَا مَا تَعَدَّرَا^(١)
وإذا ما عدنا إلى النظر في معنى الجلم، فإننا نجد أنه لا يتعدى
الناحية الفسيولوجية، أي السيطرة على الانفعالات والتوترات حتى لا
يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة، ولا علاقة لهذا بالدين، أي التأمل
والتدبر والتفكير فيما وراء المنظور المحسوس، وإنما يدور في الحدود
المادية.

(١) شعره، ص ٦٩.

الفصل الرابع

علاقة الجهل بالأمية والدين

أ - الجهل بمعنى الأمية^(١)

اتضح لنا من كل التحليلات التفصيلية السابقة لمدلول كلمة «جهل» ونقيضها «حلم» أنها كلها تدور حول الحالة النفسية والذهنية سلباً أو إيجاباً، بيد أن عترة يقول:

هَلَا سَأَلْتَ الْخَيْلَ يَا بِنْتَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي^(٢)

فهل يعني الجهل هنا أنه نقيض العلم وليس الحلم؟ قد يبدو هذا المعنى صحيحاً نوعاً ما، غير أن التأمل فيه يظهره غير بعيد عن المعاني السابقة، لا سيما المعنى الآخر، أي عدم القدرة على رؤية الأشياء رؤية محددة. كما أن عبارة «لم تعلمي» تعني عدم المعرفة، ويمكن أن نرى هذا في قول النابغة:

(١) انظر: حول الأمية: لوساني، نظرات جديدة في تاريخ الأدب ص ٣٣٢ - ٣٣٣ حيث يرى أن النسبة إلى «أمي» التي جاءت في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران - آية ٧٥) هي نسبة أطلقها اليهود على غيرهم. شحلات، مفهوم الأمية في القرآن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ص ١٠٣ - ١٢٥ الذي يلخص المفهوم في أن الأمي هو «الذي لا يعرف كتاباً سماوياً حقيقة، أي بقي على طبيعته الأصلية دون تهذيب» ص ١٢١. وقد كان الشائع أن «الأميون» هم العرب، أو الذين لا يعرفون القراءة والكتابة.

(٢) ديوانه، ص ٢٥.

يُنْبِثُكَ ذُو عَرَضِهِمْ عَنِّي وَعَالِمُهُمْ وَلَيْسَ جَاهِلُ شَيْءٍ مِثْلَ مَنْ عَلِمَا^(١)

وهذا هو المعنى المراد أيضاً في قول كعب بن سعد الغنوي:

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَالُ أَنْ يَتَهَضَّمُوا أَخَا الْعِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِينْ بِجَهُولِ^(٢)

ومع ذلك، فليس بعيداً أن يكون معنى عدم المعرفة هو المراد. يدل على ذلك قول عبدة بن الطيب:

إِنْ كُنْتُ تَجْهَلُ مَسْعَاتِي فَقَدْ عَلِمْتُ بَنُو الْحَوَيْرِثِ مَسْعَاتِي وَتَكَرَّرِي^(٣)

وقول عوف بن الأحوص:

فَهَلْ لَكَ فِي بَنِي حُجْرٍ بِنِ عَمْرٍو فَتَسْلَمَهُ وَأَجْهَلَهُ وَلا^(٤)

ولكن المعرفة هنا لا تعني بحال من الأحوال المعرفة الكتابية، وإنما تعني المعرفة اليقينية الإدراكية.

وهذا هو المعنى المراد في قوله تعالى:

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾.

وقوله سبحانه:

﴿فَتَسِينُوا أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا بِيَهْلِكُوا﴾.

وقوله عز وجل:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ (النحل: ١١٩).

«إفطلاق الجهل على ضد العلم عربي قديم»، ولكنه العلم الذي

(١) ديوانه، ص ٦٣.

(٢) البحتري، حماسة، ص ١٦٨.

(٣) شعره، ص ٤٠.

(٤) ابن الأباري، شرح المفضليات، ص ٣٤٥.

تحدثنا عنه عند تفسير الآيات الكريمة السابقة، أي الخُبر والمعرفة^(١).
ويؤكد هذا الاستنتاج ما تذهب إليه بعض الدراسات الحديثة من التأكيد
على أمية الجاهليين^(٢).

ب - الجهل بالدين

وبعد تناول تلك المظاهر المختلفة للجهل، ووضوح صورها
المتعددة في جوانبها المختلفة التي نرى أنها تعود كلها إلى المعنى
المشار إليه في السابق، فلا مجال بعد ذلك، لافتراض خروج دلالات
أخرى عن ذلك المدلول الواسع جداً، وإنما تأتي ضمن دلالات أقل
أهمية، كما جاء المعنى الدلالي السابق للجهل بمعنى المعرفة.

أما استخدام اللفظة ومشتقاتها للدلالة على الدين فهو، كما
تبين لنا من أقوال الشعراء قبل الإسلام، ومن استعمالات القرآن
الكريم والحديث النبوي الشريف، جاء مع الإسلام نفسه.

يقول أبو هلال العسكري في هذا: «لم تعرف كلمة الجاهلية
قبل الإسلام»^(٣) وهو ما رآه ابن خالويه قبله حين قال: «إن لفظ
الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة»^(٤).

ونخلص بعد ذلك إلى أن المفهوم الدلالي للجاهلية قبل
الإسلام لم يكن يخرج عن محوره الذي دار حوله، وهو كل فعل
يعكس تصرفاً أحمق، طائشاً، متهوراً، قد يؤدي إلى سفك للدماء،
أو نهب للأموال، أو انغماس في الشهوات، وعدم ترك فرصة للعقل
كي يتحقق من المواقف، ويتثبت من الإجراء. وقد أوضح الشعراء

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٢٤، ص٥٧، وانظر ج١، ص٥٤٨.

(٢) انظر ما سيأتي في باب الكتابة.

(٣) العسكري: الأوائل، ج١، ص١٠٤.

(٤) ابن خالويه، كتاب ليس في كلام العرب، ق١، ص٧٣.

الإسلاميون بعد ذلك هذا المفهوم بجلاء منقطع النظير، فقال ابن مقبل:

هَلْ عَاشِقٌ نَالَ مِنْ دَهْمَاءِ حَاجَتَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الدِّينِ مَرْجُومٌ^(١)
فابن مقبل ينص صراحة على «قبل الدين» أي قبل الإسلام، أما الجاهلية، فهي الضد والقيض والدين، أي الإسلام، شريعة وتوجهاً؛ أما الجاهلية، فانفلات من كل قيد، وخضوع لما جَبَّه الإسلام؛ إنها الكفر، حسب معتقد ابن مقبل الآن.

ولم يخرج الشعراء الإسلاميون عامة عن ذلك الفهم، فهذا الأخطل يقول:

شَرِينَا فَمِثْنَا مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ مَضَى أَهْلُهَا لَمْ يَعْرِفُوا مَا مُحَمَّدٌ^(٢)
فالأخطل، الشاعر النصراني، يجعل من شرب الخمرة، وعدم التقيد برادع من الروادع، هو من عدم معرفة محمد، أي - دين محمد - أي إن الجاهلية هو ذلك التصرف الذي تعكسه الاستعارة «فمتنا ميتة»، وكأنه يشير إلى الحديث الشريف الذي مر بنا «ميتة جاهلية». وهذا واضح من قول الفرزدق في الإشارة إلى عبادة الأصنام في الجاهلية، أي في تلك الفترة التي كان يحكم فيها الخفة والسفه والطيش:

تَرَى حَوْلَهُنَّ الْمُعْتَفِينَ كَأَنَّهُمْ عَلَى صَنَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَكْفٌ^(٣)
ويقول الزبيرقان بن بدر في قحطان:

وَهَضْنَاكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْقَنَا فِدَانَتْ لَنَا مِنْكُمْ قُلُوبٌ كَوَاطِمٌ^(٤)

(١) ديوانه، ص ٢٦٧.

وكان ابن مقبل قد خلف على امرأة أبيه دهماً في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، فرق بينهما، فكان يتأثم من ذلك، ويسأل الله الرحمة والغفو عنه.

(٢) شعره، ج ٢، ص ٧٣٢.

(٣) ديوانه، ج ٢، ص ٢٩.

(٤) الهمداني، الإكليل، ج ٢، ص ٢١٣.

وسواء كان القطامي، الشاعر التغلبي، مسلماً أم نصرانياً، كقريبه الأخطل، فهو الذي يقول، جامعاً بين المعنى الدلالي والمعنى الديني:

رَمَانَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلِّ حَيٍّ أَبْرَزْنَا مِنْ فَصِيلَتِهِ لِمَاعاً^(١)

إنه عنفوان الجاهلية - الحرب والطيش - المسببات للهلاك والدمار. وهذان المعنيان هما اللذان ركز عليهما الفرزدق في قوله:

فَلَوْ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفَتْ مِنَ الْمَوْلَى الْقَلِيلِ حَلَابِيَّةً^(٢)

فالجاهلية: تعني السيطرة والغلبة، نتيجة لممارسة العنف، وتعني: الفترة الزمنية قبل الإسلام، ولم يزد الطرماح عن التركيز على قيم الجاهلية في قوله، يمدح أوس بن سعد:

الْمُنْعِمِ التَّعَمِّ اللَّاتِي سَمِعْتُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَكَّاكِ لِلْكَرْبِ^(٣)

ويقول ابن الرقيات:

وَالْبُحُورُ الَّتِي تُعَدُّ إِذْ النَّاسُ لَهُمْ جَاهِلِيَّةٌ عَمِيَاءُ^(٤)

وتكفي الصفة عمياء، لتجتمع فيها كل المعاني التي ذكرناها خلال تحليل دلالاتها تلك.

وكان الراعي قد عبّر عن العاطفة نفسها في قوله:

فَإِنْ تَغْدُونَا الْجَاهِلِيَّةُ إِنَّنَا لَنُحَدِّثُ فِي الْأَقْوَامِ بُؤْسِي وَأَنْعَمًا^(٥)

أما عروة بن أذينة، فيقول:

(١) ديوانه، ص ٣٦. لماعا: أي قطعة قطعة.

(٢) ديوانه، ج ١، ص ٧٣٢. الحلاب: الثياب التي تعطي حلياً، يفتخر بغنى قومه.

(٣) ديوانه ص ١٥.

(٤) ديوانه ص ٩٣.

(٥) شعره، ص ١٩٣.

وَنَحْنُ أَكْلُنَا الْجَاهِلِيَّةَ أَهْلَهَا غَوَاراً وَشَذْبَنَا مُجِيرَ اللَّطَائِمِ^(١)
وقال:

وَلَمْ يَهْلِكُوا إِلَّا عَلَى جَاهِلِيَّةٍ عَصَاها عَلَيْهِمْ تُرْتَبٌ وَعَدَابُهَا^(٢)
وهكذا يقول الكمي، مبيناً ممارسة قيم الجاهلية: الغزو
والمروءة، وممارسة عاداتها المذمومة آنذاك:

هُمُ الْمُغِيرُونَ وَالْمَغْبُوطُ جَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذْ تَسْتَأْمُرُ الرِّئِمُ^(٣)
فالجاهلية إذن، هي تلك الفترة السابقة على الإسلام، التي
اتصفت بتلك الصفات، كما قال ابن وهب الدوسي:

تَحَبُّ رَوْضَاتِنَا جُدْباً وَمُنْرِعَةً كَمَا تَحَبُّ إِذَا مَا صَحَّتِ الْإِبِلُ
نَحْنُ حَفْرْنَا بِهَا حَفْرَاءَ رَاسِيَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَعْلَى حَوْضِهَا طَحْلُ^(٤)
وكما قال الفرزدق أيضاً في مقابلة بين الجاهلية والإسلام:

فِي حَوْمَةٍ عَمَرَتْ أَبَاكَ بِحُورِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَأَنَّ وَالْإِسْلَامِ^(٥)
وقال أدهم بن أبي الزعرار الطائي في موافقة حكومة ذرب بن
حوط الطائي حكم الإسلام في الخشي:

مِنَّا الَّذِي حَكَمَ الْحُكُومَ فَوَافَقَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سُنَّةَ الْإِسْلَامِ^(٦)
ومن ثم نرى أن مفهوم الجهل ونقيضه الحلم، قد تطورا فيما

(١) شعره، ص ٢٤١. شذبنا: قطعنا وفرقنا. مجير اللطائم: الذي يحمي العير التي
تحمل الطيب ويتر التجار.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٦. ترتب: ثابت.

(٣) شعره، ج ٢، ص ١٠٢.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٨.

(٥) ديوانه، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٦) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٣٦.

بعد بحيث: «يمكننا أن نعد الحلم تصوراً سابقاً للمعنى الديني للإسلام نفسه، ويبدو ذلك في اتخاذ الدين الجديد المفهوم القديم لحليم لتعني المسلم أو المؤمن»^(١).

وتكون الخلاصة أن الجهل هو ما يمثله قول عمرو بن كلثوم:
أَلَا يَجْهَلُنْ أَحَدُ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا^(٢)
وما عبر عنه حنظلة الراهب بقوله:

أَخْلَامَنَا تَزُنُّ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَيَزِيدُ جَاهِلُنَا عَلَى الْجُهَالِ^(٣)
فالحلم له حدود، وإذا ما تجاوز الجهل تلك الحدود، فإن رد الفعل سيكون قاسياً وقاسياً جداً، ولعل الاستجابة الفورية التالية للجهل، وعدم معالجة الأمور بمقاييس أخرى، هي أبرز السمات التي صاحبت الشخصية العربية فيما قبل الإسلام، وكانت لها دوماً نتائجها الوخيمة، رغم تلك الادعاءات بالسيطرة على النفس والتحكم فيها. وقد أدى ذلك إلى تغييب العقل عن النظر إلى الواقع بتأمل وتفكير، حتى لم يعد الإنسان الجاهلي بقادر على التخلص من سيطرة العادة والتقليد، فدخل مفهوم الكفر والشرك في معنى الجاهلية، وتلك كانت تسمية إسلامية.

ومن ثم أصبحت «الجاهلية» مقابل الإسلام، فالإسلام: يعني

(١) *Izutsu, God., P.204.*

(٢) ابن كيسان، معلقة عمرو بن كلثوم، ص ١١٧.

(٣) الأمدي، المؤتلف والمختلف، ص ١٨٠.

ويمكن في ضوء تلك الاستنتاجات الاستفادة من فكرة «القلب الصياغي» أو «القوالب التعبيرية» التي راجت في هذه الفترة. وذلك بملاحظة التزام الشعراء القدامى بصياغة تلك الأفكار في ألفاظ يدورون حولها، ولا يخرجون عن مدلولاتها في الحلم والجهل. ونجد شواهد كثيرة على ذلك مثلاً في: العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١١٩ - ١٢٠.

الحلم والعلم والأخلاق الحميدة، أما الجاهلية: فالتسرع، والاندفاع، والغضب، والفتنة. وعلى هذا يمكن أن نستنتج:

«أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنظيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقام الذم. وقالوا: شعر الجاهلية، وأيام الجاهلية، ولم يسمع ذلك كله إلا بعد نزول القرآن، وفي كلام المسلمين»^(١).

وبالإضافة إلى ذلك فإن لفظة الجاهلية، مصدر صناعي، ولم ترد المصادر الصناعية في القرآن الكريم إلا في لفظين الأول هو هذه، والآخر هو «الرهبانية» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فَفَتِنَا عَلَىٰ عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ (الحديد: ٢٧).

فالإسلام هو الحلم، والحلم هو الإسلام؛ إنه نقيض كل مفاهيم الجهل السابقة، إنه العقل والتفكير، والروية والاتزان والكياسة؛ أما الجهل، فهو: الطيش، والنزق، والفتنة، وعدم اليقين؛ إنه الفساد، والكفر، والظلم، والشرك، وعبادة غير الله.

﴿نَبُذَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ .

﴿أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ .

﴿﴾ .

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، ج٤، ص١٣٦.